كامب ديفيد.. ثلاثون عاما من التطبيع المرتبك

جاء إغفال القاهرة عن الاحتفال الرسمي بمرور ثلاثين عامًا على توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل، في ٢٦ من مارس ١٩٧٩ والتي أنهت ثلاثين عامًا من حالة الحرب بين البلدين؛ لتكشف حالة التوتر التي تسود العلاقات الثنائية (المصرية - الإسرائيلية) في ضوء الحرب الأخيرة على قطاع غزة.

هذا التوتر ازداد بعد نتائج الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة وصعود اليمين المتطرف وعلى رأسه أفيجدور ليبرمان، زعيم حزب إسرائيل بيتنا القومي المتطرف؛ فليبرمان هو المرشح القوي لتولي منصب وزير الخارجية، وهو منصب سيلزمه بالتوجه كثيرا إلى القاهرة. وكانت العاصمة المصرية صرحت -بشكل غير مباشر- عبر الصحف القومية بأن "ليبرمان شخص غير مرحَّب به" بعد الإهانات التي وجهها الأخير إلى الرئيس المصري حسني مبارك، ومطالبته بضرب السد العالي بقنبلة نووية.

هذا التوتر قد لا يعكس شكل العلاقة الرسمية القائمة حاليًا بين البلدين على طول الخط، والتي لم تكن يومًا علاقة نمطية. فتارة كانت تحدث توترات تصل إلى حد سحب السفراء. وتارة أخرى كانت تصل إلى أفضل حالاتها، فيوقع البلدان اتفاقيات تجارية مشتركة (تصدير الغاز المصري، والكويز التي تلزم بإدخال منتجات إسرائيلية في صناعة النسيج المصرية المصدرة إلى الولايات المتحدة بنسبة تصل إلى ١١٪، إلخ). لكن جميع حالات التوتر كانت نتيجة للسياسات الإسرائيلية تجاه الدول العربية الأخرى، ولم تكن نتيجة تأزم في أي قضية مشتركة.

لكن على المستوى الشعبي، فإن العلاقة كانت أبعد ما تكون عن أي

حالة تقارب بين الشعبين خلال الثلاثين عاما. بل إنها اتسمت في أغلب الأحيان بالرفض المطلق لأي قادم من تل أبيب؛ رغم المحاولات المضنية التي بذلت من الحكومتين باتجاه إحداث قبول لفكرة "التطبيع" التي تحولت بمرور الوقت إلى "تهمة" يحاول الكثيرون أن ينأوا بأنفسهم عنها.

لكن ما الأسباب التي دفعت إلى أن يتحول التطبيع إلى تهمة؟ وهل هذا يعني أن حالة السلام بين البلدين فشلت، وأن كلاهما لم يخرج رابحًا من تلك الصفقة التي غيّرت شكل المنطقة حتى الآن ولسنوات طويلة مقبلة؟

الأسباب أكثر من أن تُحصى في هذه المساحة الصغيرة، لكن أبرزها يتمثل في أن قرار مصر "السلام مع إسرائيل" كان سياسيًّا ومفاجئًا، ولم تكن هناك مقدمات ما قد يدفع إليه بالشكل الذي تم به، ولم يكن ناتجًا عن تغييرات سياسية أو اجتماعية تبرر قبوله لدى الشارع المصري. بل إن قطاعات كثيرة من الشارع والمثقفين رفض هذه الخطوة من الرئيس الراحل أنور السادات وأدت حالة الرفض العربي أيضًا إلى تعزيز النفور الشعبي من الاتفاقية، رغم ما أنجزته من تحرير الأراضي المصرية.

اتفاقية ورقيّة:

هذا الخلاف أو الانشقاق بين النظام والجماهير كان اللبنة الأولى في أن يتحول السلام مع إسرائيل إلى "اتفاقية ورقيّة" لا تسمح بتطوير العلاقة بين القاهرة وتل أبيب إلى صداقة، وأن يتحول التطبيع إلى "حالة ارتباك" تصيب الداعين إليه بخشية التعرض لاتهامات بالخيانة والتبعية. إضافةً إلى أن استمرار سياسات إسرائيل العدوانية ضد الفلسطينيين والعرب ساعدت على ترسيخ هذا النهج، وأدخلت التطبيع في ثلاجة فشل الكثير من المحاولات في إذابة ثلوجها. توازى مع ذلك زيادة مد الحركات الإسلامية التي رفضت

التطبيع واتخذت من الموقف الرسمي الداعم له ذريعة أساسية للهجوم على النظام، وشحن الشارع المصري المهموم بمشاكله الاقتصادية ضده؛ ومن هنا بدأ ارتباط خفي بين موقف النظام من إسرائيل وبين سياساته الداخلية، التي واجهت وتواجه صعوبات ةاقتصادية، حيث أصبح كثير من الأدبيات السياسية في مصر يتحدث عن قبول النظام لضغوط دولية خاصة من الولايات المتحدة، لإبداء مرونة مع إسرائيل تؤثر على سياساته الخارجية مقابل المزيد من المعونات والاستثمارات لإنقاذ الاقتصاد من عثراته المتكررة ومِن ثَم ضمان بقاء النظام.

المأزق الاقتصادي:

لكن المشكلة أن أزمات الاقتصاد المصري استمرت ولم تفلح محاولات إنقاذه من عثراته إلا في مرات قليلة، وعبر اتفاقيات دولية جاءت نتيجة التطورات التي حدثت في المنطقة، وعبر حروب الخليج الثلاثة، في الوقت الذي استمرت فيه إسرائيل بسياساتها العدوانية، والاستخفاف بمصر ما أجج من مشاعر الكراهية ضدها، وأفشل كل محاولات الترويج للسلام معها. واستغلت المعارضة هذه السياسة للمزيد من الشحن ضد النظام خاصة بعد انتشار ظاهرة ما سمي بالمبيدات المسرطنة، وتزايد نسبة الإصابة بالأمراض السرطانية والوبائية بين المصريين وسرعان ما توجهت أصابع الاتهام إلى التطبيع وأنصاره الذين سمحوا بدخول هذه المواد الإسرائيلية لتدمير المجتمع المصري، وهو الأمر الذي رسخ في الوجدان الشعبي الترابط بين تردي الوضع الصحي والنفسي والاقتصادي وبين إسرائيل بوصفها العدو الأول لمصر الهادفة إلى القضاء على المصريين وجدانيًّا بعد أن عجزت عن ذلك عسكريًّا.

اللافت أن هذه الكراهية انتقلت من الجيل الذي حارب إلى الجيل التالي الذي لم يشاهد أي حرب مع إسرائيل بل إن من ناهز على الأربعين لم يعِ آخر الحروب في عام ١٩٧٣. ورغم ذلك فإن كراهية الشارع المصري لإسرائيل متأصلة، وتكاد تمثل أحد عناصر التربية التي يتم تلقينها للأطفال حتى الآن من آبائهم. وحاول البعض الترويج بأن كثيرًا من الشباب المصري لم يعُدْ يهتم بفكرة العداء مع إسرائيل، وأن أعدادًا كبيرة منهم يتوافدون على الكيان الصهيوني للبحث عن فرصة عمل بعد أن فشل في إيجادها في مصر.

الخاسر والرابح:

هذه النظرة ترى أن مصر خسرت من الاتفاقية أكثر مما كسبت فهي وإن استردت أرضها، فإنها خسرت كثيرًا من نفوذها الإقليمي؛ ما أدى إلى انفراط عقد الإقليم، ودخل في صراعات لم يخرج منها حتى الآن، وأن المردود الاقتصادي من السلام لم يَفِدِ الاقتصاد المنهك بالكثير، بل إن المعونة الأمريكية وبعض المعونات الأوربية، التي وإن ساعدت على إحداث إصلاح ملحوظ في البنية الأساسية، فإنها تحولت إلى أداة ضغط من واشنطن وأوربا وفشلت في إحداث تحول في الاقتصاد المصري الذي ما زال حتى الآن في مرتبة متأخرة على المستويين الدولي والإقليمي. في المقابل فإن إسرائيل ربحت كثيرًا من الاتفاقية؛ فهي نجحت في احتواء أكبر وأكثر خطر يهدد وجودها، فقوة مصر لا تقتصر على القوة العسكرية فقط، وإنما على قوة بشرية هائلة قادرة، إذا أتيح لها فرصة حقيقية، على إحداث تحولات جذرية قد تغير وجه المنطقة بما يهدد الوجود الإسرائيلي نفسه، إضافةً إلى أن العرب اتخذوا النهج المصري دليلاً، وقدموا يد السلام في الوقت الذي تأبى فيه تل أبيب في تقديم أي مؤشر على قبولها للسلام، بل وتتفنن في آليات الهروب منه بعد أن

حولت عملية السلام إلى "إدارة صراع" بدلاً من حله.

عدو إسرائيل الأول:

لقد تحولت إسرائيل إلى أهم مراكز استقطاب الاستثمار الغربي في مقابل الفتات إلى مصر، ما ساعدها في تحسين مستواها الاقتصادي من جهة ودعم مخططاتها العسكرية الاستعمارية من جهة أخرى. كما سعت إلى ترويج نفسها بأنها واحة الديمقراطية والفرص الحرة في المنطقة.

واستغلت تل أبيب الفرصة للتهرب من التزامات السلام بل ومن التطبيع نفسه الذي إذا طُبِّق بشكل حقيقي قد يمثّل خطرًا داهمًا عليها؛ فالسلام يعني أن يكون هناك قبولاً إسرائيليًّا بدخول مئات، بل وآلاف العرب، إلى أراضيها، سواء للسياحة أو العمل، وهذا ما ترفضه تل أبيب؛ فحتى لو ظلت تروّج لنفسها بأنها ضحية وتناشد العرب التطبيع معها، فهي تريد سلامًا مفصّلاً على مقاسها، ويخدم أهدافها. أما السلام والتطبيع الحقيقيان ففيهما هلاكها.

المصدر: موقع قصة الإسلام للدكتور / راغب السرجاني

******